

العنف ضد الأطفال في المسجد

- واقعه وانعكاساته -

الملخص:

يحاول هذا النص تسليط الضوء على ظاهرة العنف الممارس ضد الأطفال في المسجد، والسعي إلى بسط وإبراز مظاهر هذا العنف الذي يتجلى في صورتين هما العنف المادي الذي يشمل العنف الجسدي واللفظي الموجه اتجاه هذه الفئة من قبل الكثير من المصلين والمشرفين على المساجد. والعنف الفكري الذي يتمثل في الاستغلال المذهبي للأطفال من قبل بعض الجماعات والتيارات الدينية. كما يهدف إلى محاولة فهم انعكاسات هذه الظاهرة سوسيولوجيا على فئة الأطفال خصوصا والمجتمع عموما.

تمهيد:

يمكن للعنف بشتى أشكاله وصوره أن يكون سلوكا ملازما للجماعات البشرية داخل مؤسسات رسمية أو غير رسمية، ويمكن لهذا العنف أن تزداد حدته من جماعة لأخرى ومن مؤسسة لأخرى، إلا أن شدة العنف وخطورته تأخذ بعدا أكبر حينما يكون الضحية هو "الطفل"، ويعبر في العادة عن العنف ضد الأطفال بمصطلح «الإساءة للأطفال (CHILD ABUSE)»¹.

وبغض النظر عن نوع المؤسسة أو المحيط الذي يمارس فيه هذا العنف (الإساءة) ضد الأطفال، سواء كانت (الأسرة، المدرسة، المسجد....أو غيرها)، فإن خطورة هذا الفعل

في حد ذاته تأخذ حجما أكبر، حجما يكبر كلما كبر الطفل ونضج، ليكون هذا الفعل في آخر الأمر أحد تجاربه التي يبنى عليها شخصيته وتفكيره وسلوكه وعلاقاته.

والمسجد باعتباره أحد المؤسسات التربوية في المجتمع، إذ له من الوظائف والأدوار المختلفة ما يؤهله لأن يكون من أهم هذه المؤسسات وأبرزها. ولعل من أهم مقاصده ومهامه تنشئة جيل متشبع بتعاليم دينه وقيمه ومبادئه. وعليه جاءت الشريعة حائلة على تعويد الأطفال الذهاب للمسجد والتردد على مجالسها وحلقاتها، والحرص في جعلهم من رواد المساجد، وبالرجوع إلى كتب الأحاديث والسيرة النبوية نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُقص الأطفال من المسجد، بل كان لهم من الاهتمام الخاص والعناية الكبيرة ما سجلته الكثير من الأحاديث وسير الصحابة التي لا يسع المقام لعرضها. غير أنه لا بد من الإشارة هنا إلى أحد الأحاديث التي أتت فيها عن مكانة الأطفال في المسجد كالذي رواه أبو داود: "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصف المصلين فيجعل الرجال قدام الغلمان، ثم يجعل النساء خلف الغلمان". وغير ذلك مما جاء في السيرة النبوية مبينا اهتمام الإسلام بالأطفال وضرورة الاعتناء بهم، وبذل الجهد في توجيههم وتقويمهم ووجوب تعويدهم على إتيان المساجد والمواظبة عليها.

وإذا كان مجتمع المسجد يتميز بالتباين والاختلاف في الجنس والسن، فإننا نجد من هؤلاء الفئات المترددة على المساجد فئة "الأطفال"، وبالرغم من هذا الحضور الدائم الذي يفرض نفسه لهذه الفئة مما قد يعكس ارتباط وميل ديني مبكر لدى الأطفال، إلا أن واقع هذه الفئة في الكثير من المساجد يبعث على التخوف والقلق، ذلك لما يتعرض إليه هؤلاء الأطفال من مختلف أساليب المعاملات والتصرفات من طرف الكبار من (المصلين والقائمين على المساجد) اعتقادا منهم في تربية وتوجيه هذه الشريحة. إلا أن الكثير من هذه التصرفات ما قد يؤدي إلى كسر وتعطيب العملية التربوية والتوجيهية للمسجد، بل إن من هذه التصرفات والسلوكات ما يُعدُّ بمثابة دروس للطفل في العنف والغلظة، نراها

ولا نزال تنخر في حاضر الطفل ويوميته داخل المسجد، فما هي أبرز هذه السلوكات؟ وما مدى خطورتها، وما هي انعكاساتها على الطفل؟

العنف الجسدي أو الرفض والإقصاء:

يمثل "الأطفال" الفئة الأكثر تميزاً من بين الفئات الأخرى المترددة على المسجد، لما تتمتع به من خصوصيات، كما تتنوع طرق وكيفيات حضور هذه الفئة ومجيئها للمسجد من طفل لآخر. إذ نجد من الأطفال من يحضر المسجد بمعية أبيه أو أخيه، أو في زمرة من أقرانه وأصدقائه، ومنهم من يُوجّه من بيته من طرف أفراد أسرته، ومنهم من يأتي عن رغبة وطوعية.... وغير ذلك.

وأمام هذا الإقبال المختلف الأشكال والطرق على المساجد، يدخل على الجو المسجدي جواً آخر تحمله نفسيات الأطفال وعفوياتهم؛ وتصنعه خفة حركاتهم ودهشتهم في ملاحظة الجديد من التصرفات والسلوكات التي يقوم بها الكبار. مما يشد النظر ويثير انتباه لدى بعض المصلين، فتبرز إذاك ردود فعل بعضها صامت وبعضها غير صامت، بل وبعضها هادئ والآخر زاجر... وغيرها.

ومما يثير التساؤل والانتباه من هذه الردود الفعلية، ذلك الإنكار الشديد والزجر العنيف هؤلاء الأطفال حيث نلاحظ في الكثير من المساجد تلك الردود الفعل العنيفة التي يبدونها المصلون اتجاه طفل أو مجموعة من الأطفال لسبب من الأسباب، فنجد هذه السلوكات تتنوع من "السب، الشتم والطرود العنيف..." ويصل بعض المسؤولين داخل المسجد (القيم أو الإمام أو أحد أعضاء الجمعية الدينية) إلى حد الضرب. مما قد يشكل لدى هؤلاء الأطفال إحساساً بالإقصاء والرفض، فيصبح المسجد بالنسبة إليهم فضاءاً للنبد وللتخويف، وبالتالي ينمو سلوك الطرد والزجر من طرف المصلين كعامل مانع ضد اندماج الأطفال في المسجد، وعامل حاث على تجنب المسجد وتفاديه، واللجوء إلى الهروب والبحث عن مكان آخر يجدون فيه ملاذاً من نبذ المصلين وفضاظتهم.

والعنف في مجمله ليس بالضرب باليد أو العصا أو نحو ذلك فحسب، لكنه طيف متحرك من الإمكانيات والسلوك، يتأرجح من الفكرة إلى الفعل ومن المجرّد إلى الملموس، حيث الكراهية تترجم تعبير الوجه الحاقد، واللفظة السامة، ومد اليد واللسان بالسوء².

والفظاظة والغلظة سلوكات مناقضة لتعاليم الدين وتوجيهاته، ومنافية لمنهج الدعوة والنصح فيه، وفي بيان دور وأهمية الرفق واللين والرحمة جاء قوله تعالى مخاطباً نبيه: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ."³ فإذا كان هذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في كل مكان وزمان حتى يكون قدوة لغيره قادراً على التأثير في الناس وجلبهم إليه، فما بالك بأولئك المتدينين الذين يعمرّون المساجد وفي سلوك الكثير منهم غلظة وقسوة، وفي ألسنتهم بغض وكره اتجاه الأطفال. وهاهو الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا فيقول: "إذا أحبَّ الله أهلَ بيتٍ أدخلَ عليهم الرِّفق"⁴ فكيف بأهل بيت الله وضيوفه أن يشيع فيهم السلوك العنيف أو التوجيه القاسي والشديد. إن تجمع الصحبة من الأطفال ممن لديهم إحساس بالرفض والمواجهة من طرف بعض المصلين. يجعل منهم اعتماد أسلوب العنف بسهولة وتبنيه في معالجة علاقاتها بالاجتماع ومؤسساته وثقافته المخالفة لهم، وبهذا يلجأ الطفل إلى السلوك العدواني لإشباع حاجته وتحسيس الغير بوجوده وأنه باستطاعته فرض سيطرته وإثبات ذاته. "حيث أن العنف ضروري للتغلب على الشعور بالنقص من أفراد، كما أنه يعد ضروريا لتحقيق أهدافه غير المشروعة وممارسة العنف الجماعي بمختلف أشكاله ومستوياته"⁵.

ولعل هناك من ينكر هذا الحديث بدعوى أن ما يحدث في الكثير من المساجد من هذه الأساليب والمعاملات الموجهة نحو الأطفال هي من باب "الكف عن الأذى" و"النهي عن المنكر" والحفاظ على قدسية المكان وحرمة. إلا أن وصف هذه السلوكات والمعاملات بالعنفوانية والدعوة لممارسة الحد منها لا تعني على الإطلاق الكف عن العقاب. ذلك أن الدراسات النفسية أثبتت أنه كما أن للشباب أثراً في التربية فإن للعقاب أيضاً أثر في تربية

الطفل. ولكن العقاب يكون وفق معايير وحدود تتماشى مع القيم الإنسانية والمبادئ الإسلامية حتى لا يكون سعيًا في تقويم الاعوجاج يؤدي بنا لكسر المعوج، وحتى نحیی العلاقة الطيبة بين الطفل والمربي (القدوة).

العنف الفكري أو "الاستغلال المذهبي":

إن تعبير العنف الفكري على الأطفال، هو تعبير يكتنف على بعض الغموض والإبهام، إلا أن تجسد هذا النوع من العنف المحاك ضد عفوية وبراءة الأطفال، له في واقع المساجد ما يزيل عنه غموضه وإبهامه.

والعنف الفكري هو من أخطر أنواع العنف الموجهة نحو الأطفال داخل المساجد ، ذلك أن هذا العنف هو الذي من شأنه أن يصنع السلوك العنيف والتصرف الخشن لدى الطفل، ويغرس فيه روح الاقتناع والتشبث به اعتقادًا منه بقدسيته وأصالته وإيمانا بصلاحيته ونجاعته. وبذلك تتشكل لديه إيديولوجية العنف التي هي "التصور الذهني الذي تتبناه طائفة من الناس لمعالجة قضية العنف"⁶.

ومما لاشك فيه أنه لا يوجد من ينكر وجود اختلافات مذهبية وتضارب المرجعيات الدينية داخل المساجد تصل إلى حد الصراع فيما بينها، والمؤكد من ذلك أن لهذه الاتجاهات والمرجعيات أنصارًا و"دعاة" يتشكل معظمهم من الشباب. "واتساع دائرة الصراع لا يؤسس لأيديولوجية العنف فقط؛ بل يؤسس أيضاً للمنظمة ذاتها فيدفع آخريين من أفراد المجتمع للالتحاق بمؤسسة العنف"⁷، كما أن صراع هذه الأطراف تبلوره فكرة التنافس في جلب الأتباع والمناصرين من أفراد المجتمع وخاصة المترددين على المساجد، فمن تكون الفئة الأكثر استهدافًا في هذه العملية؟

يمثل إقبال الأطفال وترددهم على المساجد في نظر بعض الأشخاص والجماعات بمثابة دجول. فريسة في شبكة عنكبوت، وأن اقتناص مثل هذه الفرص له ما يبرره حسب اعتقادهم في توجيه الأطفال وحمايتهم من الانحراف بما يطرح لديهم من ضرورة ووجوب

أخذ المبادرة والتدخل في تقديم النصح والإرشاد الديني والتوجيه العقيدي لهذه الشريحة التي يُخشى من تظليلها وإبعادها عن المنهج السليم من طرف التيارات والتوجهات الأخرى "الضالة".

ونظرا لكون المسجد أحد المؤسسات التي يتوجه إليها الأطفال، فإننا نجد البعض ممن يستغل هذا الميول الديني لدى صغار السن، فيحرف بهم عن المبادئ الصحيحة للدين تحت ستار التطبيق الأصولي لهذه المبادئ ويدفعهم إلى الخروج على نظام المجتمع وقوانينه. وتنشأ من ذلك جماعات تتخذ لنفسها غطاء دينيا تعمل من خلاله على استقطاب الأطفال مستغلة في ذلك صغر سنهم وقلة معلوماتهم الدينية وضعف خبرتهم ودرايتهم بحقيقة العلاقات الاجتماعية والخلافات المذهبية، لتبدأ في بث سمومها ثم توجيه هؤلاء الصغار لتحقيق أهدافها وآرائها، لتصنع منهم صغار مجرمين يرتكبون مختلف الجرائم والأفعال العنيفة⁸.

وهكذا تزرع بذرة العنف في عقول الأطفال فكرة صغيرة ليتم تناقلها بينهم، ويصبحون بدورهم دعاة لها بين أقرانهم وزملائهم، وبذلك تكون هذه التغذية الفكرية العنيفة قد تمكنت من تحقيق أهدافها واستقطاب أنصار ودعاة لها. متخذة الفضاء الروحي "المسجد" قاعدة ومركزا لها.

إن مثل هذه الأساليب والسلوكات التي يقوم بها هؤلاء الأفراد والجماعات في الكثير من المساجد اتجاه فئة "الأطفال" ليتمكن وصفها بأنها عملية إنتاج صريحة ومباشرة لفرد عنيف. وهي عملية مضادة للرسالة والدور الذي تقوم به المؤسسة الدينية في تنشئة الأطفال وتوجيههم وحمايتهم من الانحراف. حيث أكدت الدراسات والأبحاث على دور المسجد في حماية الأطفال من الانحراف والجنوح، وقد أثبتت الدراسة الميدانية المتعلقة بعوامل جنوح الأحداث في الجزائر أهمية التربية الدينية والوظيفة المسجدية للأطفال، إذ

بينت النتائج هذه الدراسة أن 47% من الأولاد غير المنحرفين و 04% فقط من الأولاد المنحرفين -من مجموع العينة- كانوا يذهبون إلى المساجد معظم أوقات الأسبوع 8. ومن أجل الحفاظ على هذا الدور وغيره للمسجد، يجدر بنا أن نعمل جاهدين من أجل تقليص الفجوة التي قد تحدث بين الأطفال والمسجد بسبب هذه الأنماط من السلوكات والمعاملات المنفرة والحائلة دون الاندماج السليم للأطفال في المسجد. ومحاولة التغيير والحد منها.

- ١- لميس ناصر: دراسة حول "العنف ضد النساء والأطفال".
<http://www.amanjordan.org/>

- ٢- خالص جلي: سيكولوجية العنف واستراتيجية الحل السلمي، دار الفكر، دمشق، (د، ت)، ص ١٣٦.

- ٣- القرآن الكريم: سورة "آل عمران"، الآية ١٥٩.

- ٤- رواه أحمد

- ٥- سلوى عثمان صديقي، جلال الدين عبد الخالق، السيد رمضان: الخراف الصغار وجرائم الكبار، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ١٠٩.

- ٦- عبد الله الصبيح: سنة أولى عنف.. رؤية في سوسيولوجية العنف، الجزء (٣)، ٠٩/١١/٢٠٠٣، www.islamtoday.com.

- ٧- المرجع نفسه: الجزء (١)، ١١/١٢/٢٠٠٣.

- ٨- سلوى عثمان صديقي، جلال الدين عبد الخالق، السيد رمضان: مرجع سابق، ص ١٢١.

- ٩- علي مانع: عوامل جنوح الأحداث في الجزائر، نتائج دراسة ميدانية، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٧، ص ١٢٥.